

صيد الخاطر

24 - - فصل : التعليم عبادة .

ما زالت نفسي تنازعني بما يوجهه مجلس الوعط و توبة التائبين و رؤية الزاهدين إلى الزهد و الانقطاع عن الخلق و الانفراد بالآخرة .
فتأملت ذلك فوجدت عمومته من الشيطان فإن الشيطان يرى أنه لا يخلو لي مجلس من خلق لا يحصون ييكون و يندبون على ذنوبهم و يقوم في الغالب جماعة يتوبون و يقطعون شعور الصبا .
و ربما اتفق خمسون و مائة و لقد تاب عندي في بعض الأيام أكثر من مائة .
و عمومهم صبيان قد أنشأوا على اللعب و الانهماك في المعاصي فكأن الشيطان لبعد غوره في الشر رأني أجتذب منه فأراد أن يشغلني عن ذلك بما يزخره ليخلو هو بمن أجتذبهم من يده .
و لقد حسن إلى الإنقطاع عن المجالس و قال : لا يخلو من تصنع للخلق .
فقلت : أما زخرفة الألفاظ و تزويقها و أخراج المعنى من مستحسن العبارة فضيلة لا رذيلة .

و أما أن أقصد الناس بما لا يجوز في الشرع فمعاذ الله .
ثم رأيت يريني في التزهد قطع أسباب - ظاهرة الإباحة - من الاكتساب .
فقلت له : فإن طاب لي في الزهد و تمكنت من العزلة فنفذ ما بيدي أو احتاج بعض عائلتي ألسأعود القهقري ؟ .
فدعني أجمع ما يسد خلتي و يصونني عن مسألة الناس فإن مد عمري كان نعم السبب و إلا كان للعائلة و لا أكون كراكب أراق ماءه لرؤية سراب فلما ندم وقت الفوات لم ينتفع بالندم .
و إنما الصواب توطئة المضجع قبل النوم و جمع المال الساد للخلعة قبل الكبر أخذا بالحزم .

و قد قال الرسول صلى الله عليه و سلم : [لأن تترك ورثتك أغنياء خير لك من أن تتركهم عالة يتكففون الناس] .
و قال : [نعم المال الصالح للرجل الصالح] .
و أما الانقطاع فينبغي أن تكون العزلة عن البشر لا عن الخير و العزلة عن البشر واجبة على كل حال و أما تعليم الطالبين و هداية المرتدين فإنه عبادة العالم .
و إن من تفضيل بعض العلماء إثارة للتنفل بالصلاة و الصوم عن تصنيف كتاب أو تعليم علم ينفع لأن ذلك بذر يكثر ريعه و يمتد زمان نفعه .
و إنما تميل النفس إلى ما يزخره الشيطان من ذلك لمعنيين : .

أحدهما : حب البطالة لأن الانقطاع عندها أسهل .

الثاني : لحب المدحة فإنها إذا توسمت بالزهد كان ميل العوام إليها أكثر .

فعليك بالنظر في الشرب الأول فكن مع الشرب المقدم و هم الرسول صلى الله عليه و سلم و أصحابه رضي الله تعالى عنهم .

فهل نقل عن أحد منهم ما ابتدعه جهلة المتزهدين و المتصوفة من الانقطاع عن العلم ؟ .
و الانفراد عن الخلق ؟ .

و هل كان شغل الأنبياء إلا معانات الخلق و حثهم على الخير و نهيمهم عن الشر ؟ .

إلا أن ينقطع من ليس بعالم يقصد الكف عن الشر فذاك في مرتبة المحتمي يخاف شر التخليط .

فأما الطبيب العالم بما يتناول فإنه ينتفع بما يناله